

## عمارة الرومانسك - ROMANESQUE ARCHITECTURE

### بدايات عمارة الرومانسك في ألمانيا

#### 1. مقدمة - Introduction

تغيرت البنية السياسية في أوروبا بعد اقتسام أبناء وأحفاد شارلمان المملكة من بعده. أدى ذلك إلى تجزئة أوروبا الغربية إلى ممالك أصغر تعتمد البني الاجتماعية والاقتصادية السابقة نفسها وازداد دور النبلاء المحليين وملوك الأراضي أهمية. كل ذلك انعكس على العمارة التي لم تشهد انتلاقة جديدة مهمة إلا في نهاية القرن العاشر.

يطلق مصطلح "عمارة الرومانسك Romanesque Architecture" على العمارة القروسطية في أوروبا ما بين نهاية القرن العاشر وحتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. ظهر هذا المصطلح في فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر وطرح من قبل Charles de Gerville ليدل على المباني المتأثرة بالعمارة الرومانية وخاصة نتيجة اعتماد الأقواس نصف الدائرية والأعمدة والدعامات والقبوالت المختلفة في بنائها.

دراسة عمارة الرومانسك في أوروبا، تعنى دراسة الأساليب المعمارية التي سادت مختلف أرجائها، فرغم إطلاق كلمة الرومانسك على العمارة الأوروبية عموماً في هذه الفترة فإن العمارة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى بسبب مجموعة من العوامل من أهمها المعطيات الطبيعية الخاصة بكل منطقة وما يرتبط بها من طبيعة مناخية ومواد أولية يمكن استخدامها في البناء. يرافق ذلك التأثر بالتراث المعماري الذي كان قائماً في كل منطقة والذي يختلف بين شمال وغرب أوروبا وبين جنوبها، حيث كانت لا تزال الكثير من المباني الرومانية والبيزنطية قائمة، إضافة إلى مؤثرات جديدة ظهرت مع امتداد نفوذ الحضارة الإسلامية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ووصولها إلى الأندلس وإلى صقلية وجنوب إيطاليا.

لم يقتصر الاختلاف على ظهور شخصية معمارية متميزة في كل من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإنكلترا وإسبانيا ضمن ما يعرف بعمارة الرومانسك وإنما كان هناك تباين أيضاً في بداية ظهور هذه العمارة ونهايتها من بلد إلى آخر.

بعد قرن من عدم الاستقرار - تلا حكم شارلمان - بدأ النشاط المعماري بالظهور مجدداً في النصف الثاني من القرن العاشر في ظل الأوتونيين Ottonians أباطرة منطقة Ostfranken، التي تقابل غرب ألمانيا اليوم، نتج عنها ما يعرف بالعمارة الأوتونية Ottonian Architecture التي تأثرت بشكل كبير بالعمارة الكارولينغية. ومن ثم بدأت التطورات المعمارية في فرنسا في الربع الأول من القرن الحادي عشر. وفي النصف الثاني من هذا القرن تكون قد وصلنا إلى أوج عمارة الرومانيسك، الذي استمر حتى منتصف القرن الثاني عشر، وهي فترة بدأ فيها الانتقال تدريجياً إلى المرحلة التالية وهي العمارة الغوتية Gothic Architecture خاصة في فرنسا. أما في كل من ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا فنجد استمراً لعمارة الرومانيسك حتى أواسط القرن الثالث عشر.

## 2. بدايات عمارة الرومانيسك – العمارة الأوتونية في ألمانيا

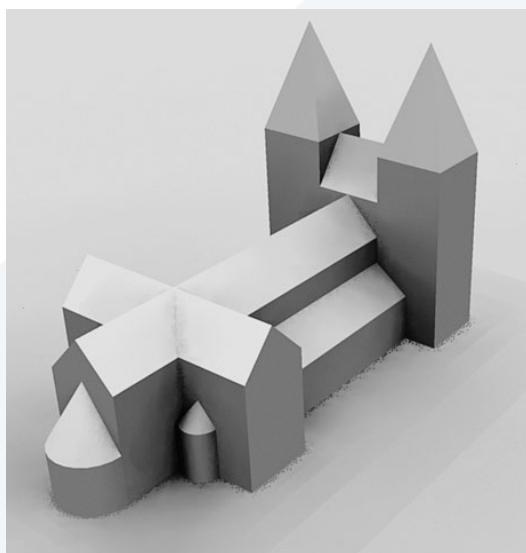
### Early Romanesque Architecture - Ottonian Architecture in Germany

#### 1.2. خصائص عمارة الرومانيسك

نشأ النموذج الجديد من المباني الدينية نتيجة الرغبة بالحصول على عمارة ضخمة تضاهي عمارة الرومان خاصة وأنه على عكس المدن الرومانية والبيزنطية، التي تظهر أهمية ومكانة الدولة لم تكن مدن القرون الوسطى قد تطورت بعد وبالتالي اضطلعت الكنائس والأديرة بهذا الدور.

تطور الطقوس الدينية liturgy في الفترة الكارولينغية وتعددتها مع ازدياد عدد الرهبان والأديرة وانتشار القدسities التي تعتمد على الموكب procession وما يرافقها من تراتيل كل ذلك أدى إلى إضافة عناصر جديدة إلى الكنائس مثل المجاز المعترض transept وفراغ مخصص للمرتلين choir، كما زاد تمجيد القديسين ورفاتهم وأثارهم relics مما تطلب إضافة هيكل صغير chapels في أماكن مختلفة من الكنيسة وبناء كنيسة سفلية crypt تضم ضريح أحد القديسين. كما أن استخدام الأديرة بشكل مؤقت كمقر ملكي تطلب حلولاً جديدة مثل الـ westwork ككتلة واضحة في الجهة الغربية من الكنائس.

نتيجة الرغبة في جعل بناء الكنيسة يستجيب لكل هذه الاحتياجات مجتمعة تم استخدام المبدأ التجمعي في العمارة أي دراسة الوظائف التي يحتاجون إليها والتي يتطلب كل منها فراغاً معمارياً معيناً ومن ثم تجميع هذه الفراغات والعناصر المعمارية المكونة لها مع بعضها البعض بطرق وحجوم مختلفة مع الحفاظ على استقلالية الفراغية لكل منها. المبني الناتج عن ذلك هو عبارة عن مجموعة من الأجزاء المتدرجة المستقلة ولكن تأثيرها وبالتالي تميز المبني لا يظهر إلا ككل متكامل سواء في الداخل أو الخارج.



شكل وموقع العناصر المكونة للكنيسة وطريقة ارتباطها مع بعضها يختلف حسب الوظائف الدينية والسياسية وحسب التقاليد المحلية.

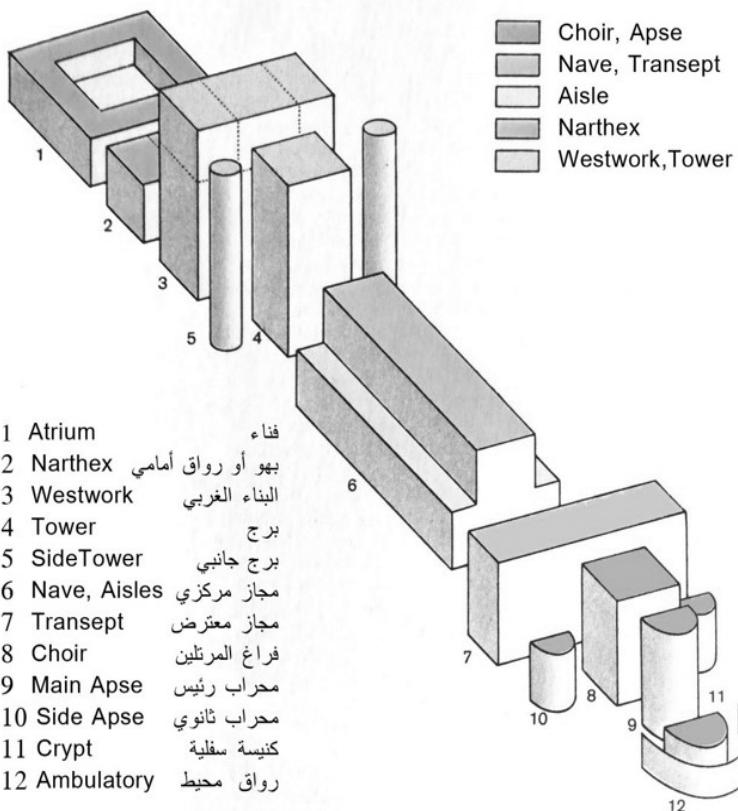
المبدأ التجمعي في العمارة additive principle

ما هي العناصر التي يمكن أن تتتألف منها الكنائس في عمارة الرومانيسك؟

يبقى المقطع البازيليكي المكون من مجاز مركزي مرتفع nave ومجازات جانبية على شكل أروقة مفتوحة باتجاه المركز aisles هو المكون الرئيس لجميع الكنائس كونه مخصص لأداء الطقوس الدينية من قبل المصلين ويناسب حركتهم. وهذا الجزء هو بمثابة الجسم المركزي الذي ترتبط به كل العناصر الأخرى. هذه العناصر هي: المحراب الرئيس apse الذي يقع في جهة الشرق غالباً، إضافة إلى محارب ثانية أو جانبية والمجاز المعرض transept والرواق الأمامي narthex والصحن المحاط بالأروقة، الذي يتقدم المبني من جهة المدخل في جهة الغرب غالباً وهي جميعها عناصر معروفة منذ بدء بناء الكنائس.

أضيف إليها في القرون الوسطى مجاز أو أكثر يتقدم المحراب مباشرة وهو فراغ مخصص للمرتلين choir، كما تحول قبر القديس الذي أقيمت فوقه الكنيسة إلى كنيسة سفلية صغيرة crypt وهي تقع على الأغلب في جهة الشرق تحت المحراب الرئيس وفراغ المرتلين، مما يجعل هناك تميزاً في المناسبات داخل الكنيسة. كما أن ازدياد عدد الزوار وخاصة في كنائس الحج أدى مع الوقت إلى ظهور أروقة محصنة بالمحراب وفراغ المرتلين تدعى ambulatory.

كما يعد بناء الأبراج towers بشكل إفرادي أو على شكل أزواج من أهم الإضافات التي غيرت من شكل الكنائس وأعطتها اتجاهها شاقوليا واضحا، علما أن أغلىها لا يؤدي وظيفة فعلية وإنما رمزية. هذه الأبراج يمكن أن تتوضع من جهة المدخل في الغرب ضمن ما يعرف بالwestwork أو تتوج تقاطع المجاز المركزي والمجاز المتعross بما يعرف ب crossing tower.



#### العناصر المكونة للكنائس في عمارة الرومانيسك باستخدام المبدأ التجمعي في العمارة

ظهرت أولى الكنائس المبنية وفق هذا المبدأ التجمعي في الفترة الأوتونية في ألمانيا ضمن ما يعرف بالعمارة الأوتونية Ottonian Architecture حيث ظهر ارتباط ملوك هذه الفترة بالقسطنطينية وبالتالي بالعمارة البيزنطية ويعتقد أنه تم استقدام بنائين بيزنطيين وأرمن ساهموا في تشييد الكنائس الحجرية الجديدة.

تتميز كنائس هذه المرحلة بكونها ذات جدران حاملة ثخينة مبنية من الحجر ولا تفتح فيها إلا نوافذ قليلة ذات أقواس نصف دائرية، كما تفصل بين المجازات أروقة بسيطة arcade تتناوب فيها الدعامات والأعمدة (وفق التقليد البيزنطي) تحمل أقواساً نصف دائرية أيضاً وتعلوها جدران ملساء مصممة (على الأغلب كانت تحمل رسومات جدارية) ومن ثم نوافذ علوية clerestory windows.

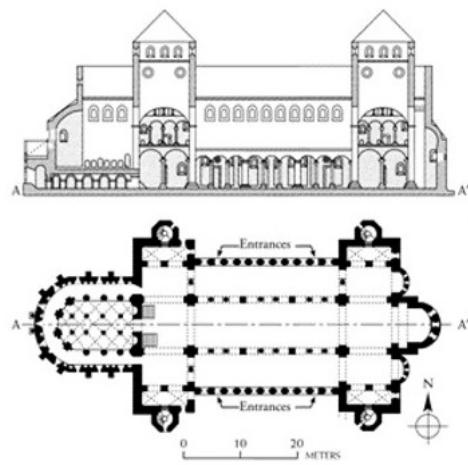
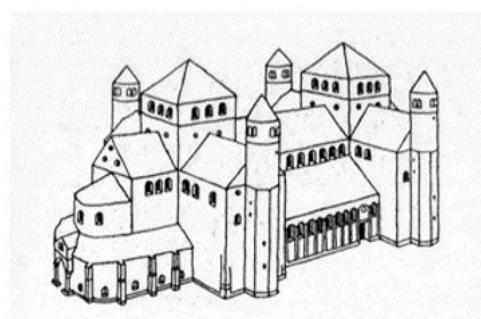
كما تتميز أيضاً باستمرار استخدام الأسفف الخشبية (حتى منتصف القرن 11م) وخاصة ضمن المجاز المركزي في حين تم أحياناً تسقيف المجازات الجانبية بالقبوالت المتصلبة أحياناً.

ومن أقدم الأمثلة التي لا زالت قائمة كنيسة دير الراهبات سان سيرياكوس في غيرنروده St. Cyriakus - Gernrode وكنيسة القديس ميخائيل في هيلدسهایم St. Michael – Hildesheim ، إضافة إلى كنيسة صغيرة هي كنيسة القديس جرجس في رايخيناو-أوبرتسيل St. Georg church - Reichenau-Oberzell.

## 2.2. كنيسة دير القديس ميخائيل في هيلدسهایم - St. Michael church, Hildesheim

تقع هذه الكنيسة على تلة شمال قلعة وكاتدرائية مدينة هيلدسهایم. وتم بناؤها ما بين 1007-1033م.

استخدم في هذا المبنى أيضاً المبدأ التجمعي additive principle ولكن بطريقة أكثر كمالاً، إذ تتكرر العناصر في الجهتين الشرقية والغربية تقريباً مما ينتج عنه مبني أكثر توازناً من حيث التوزيع الداخلي ومن حيث البنية الكتالية (أقرب إلى التناظر على محورين).



يبدأ التصميم من وسط المبنى المكون من مجاز مركزي مرتفع nave مفصول عن المجازين الجانبيين aisles برواق تناوب فيه الدعامات والأعمدة. يعلوه مباشرة جدار مصمت وفوقها منطقة النوافذ العلوية clerestory windows. ينتهي هذا الجزء من المبنى بسقف جملوني خشبي يغطيه من الداخل سقف مستعار خشبي غني بالرسومات (يعود إلى مطلع القرن 13 م) ينبع عن ذلك فراغ مركزي بنسبة 2:1 كنسبة بين العرض والارتفاع.

يحد هذا البناء من الشرق والغرب مجازان معرضان transept متماثلان لهما نفس ارتفاع وشكل السقف الجملوني، الذي يعلو المجاز المركزي ولكن يتم التركيز على كل منهما من خلال برج مربع مرتفع ينتهي بهرم يقع مباشرة فوق منطقة التقاطع crossing tower.

تكرر في هذه الكنيسة فكرة المحرابين الرئيسيين في الشرق والغرب double choir حيث يتقدم كل منهما فراغ المرتدين choir وهو هنا عبارة عن استمرار للمجاز المركزي بعد المجاز المعرض (نفس الارتفاع، نفس التسقيف) مع وجود محرابين جانبيين يحفان بالمحراب الشرقي بارتفاع طابقين. في حين تمتد هذه الفراغات نحو الخارج بوضوح في جهة الغرب وترتفع أرضيتها لتفتح مكاناً للكنيسة سفلية crypt مع رواق محيط يضم مدخل الكنيسة الرئيس المتواضع بشكل محوري.

تراكم جميع هذه العناصر يظهر بشكل واضح خارج المبنى، وكل عنصر يبقى من الأسفل إلى الأعلى مستقلاً ككتلة ومرتبطة مع العناصر الأخرى ليشكل كلاً متكاملاً.

### 3. تطور عمارة الرومانيسك في القرن 11-12 م في ألمانيا

تم الانتقال تدريجياً في كل من ألمانيا وفي فرنسا إلى تسقيف الكنائس بالقبوالت المختلفة وخاصة القبوالت الأسطوانية barrel vaults والقبوالت المتصالبة groin vaults. واستخدمت القبوالت في البدء لتسقيف المجازات الجانبية فقط aisles ومن ثم أيضاً المجاز المركزي nave الأكثر اتساعاً. أدى استخدام هذه القبوالت إلى تغييرات هامة على فراغ وبنية ورمزية المبني الكنسية. انعكست هذه التغييرات على الجدران، التي ازدادت تخانة وعلى تشكيل الرواق الفاصل بين المجازات كونه هو العنصر الحامل الأساسي.

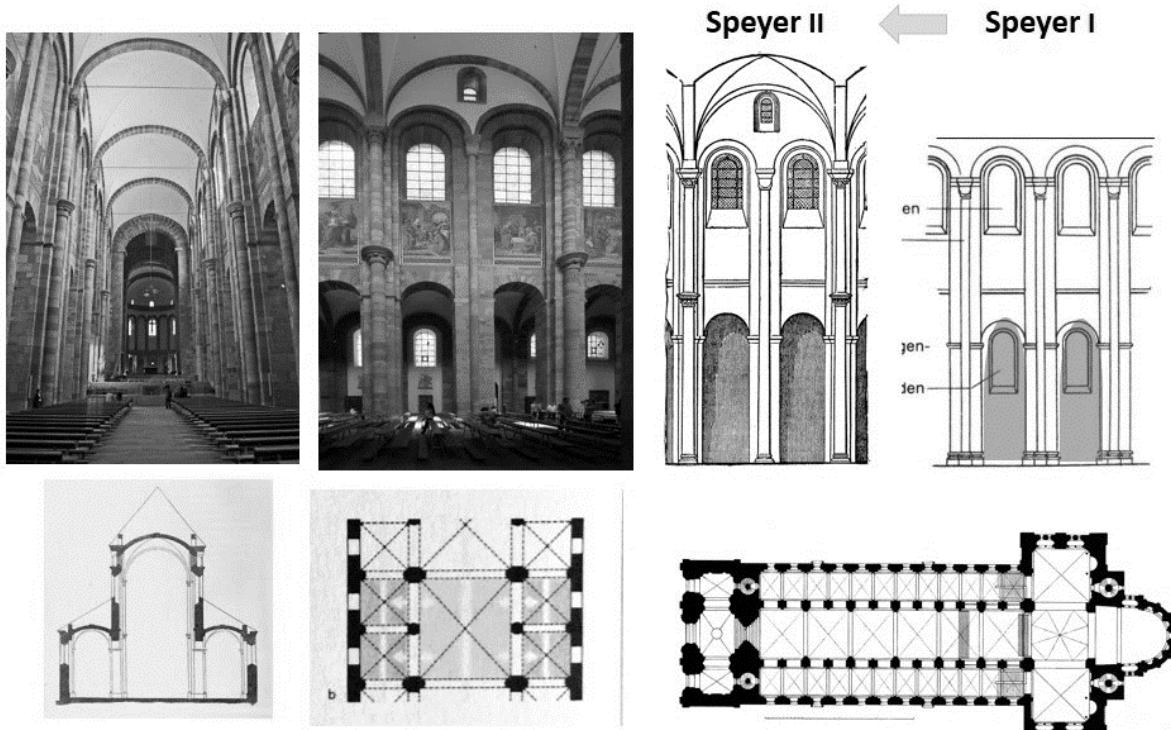
ورغم استخدام القبوالت بقية الجملونات هي المسطرة على المظهر الخارجي للكنائس، كونها تعلو القبوالت المختلفة لحمايتها من الأمطار ومن تراكم الثلوج وتختلف درجة ميلها حسب المنطقة الجغرافية.

بدأت هذه التطورات في كنيسة دير كلوني Abbey of Cluny في منطقة بورجوندي Burgundy (بالفرنسية) التي بنيت فيها أول قبوة متصالبة حوالي عام 1000 م (ضمن ما يعرف بـ Cluny II) ولكن هذا المبني هدم، ومن المبني الذي لا زالت قائمة والمتأثر به في ألمانيا كاتدرائية مدينة شباير.

### 1.3. كاتدرائية شباير - Speyer Cathedral

تعد كاتدرائية شباير - وهي مدينة ألمانية تقع على نهر الراين - أكبر كنيسة تنتهي إلى عمارة الرومانيسك في العالم. يتكون المبنى منذ بدء نشئته (بداية البناء حوالي 1030م) من كتلة غربية يلهمها مسقط بازيليكي ذو مجاز مركزي ومجازين جانبين ومن ثم مجاز متعرض يليه محراب كبير بارز نحو الخارج في الشرق يحفي به برجان مرتفعان.

كاتدرائية شباير ذات أهمية في عمارة الرومانيسك لأنها ضمت أفكاراً جديدة وخاصة من خلال التسقيف بالقبواد الحجرية مما جعل لها أثراً واضحاً في تطوير العمارة في أوروبا الوسطى.

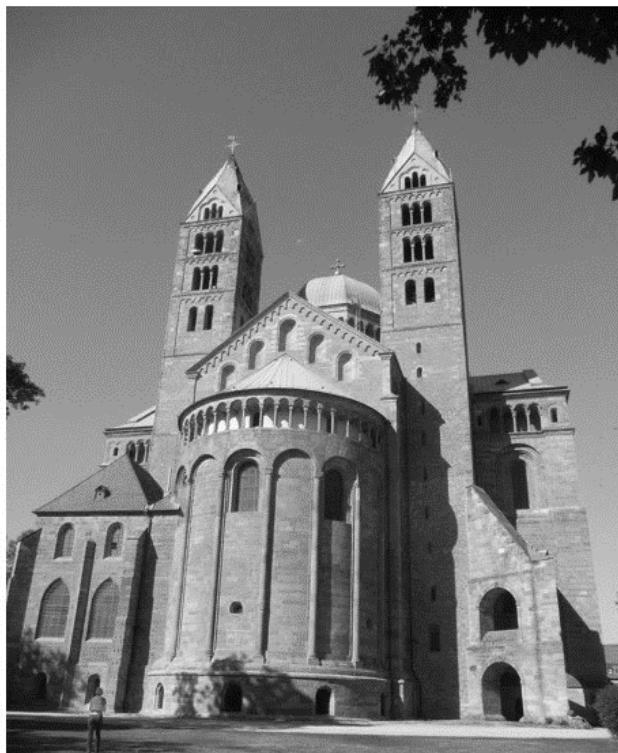


كاتدرائية شباير: تطور بنية الكنيسة بين المراحل الأولى والثانية عند إضافة القبواد المتصلبة - المجاز المركزي - مسقط - مقطع

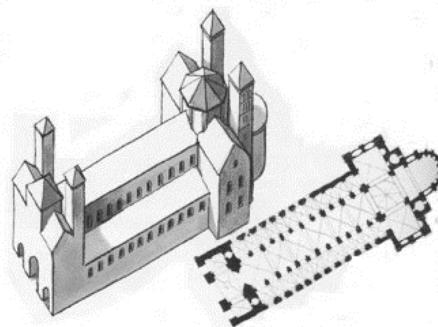
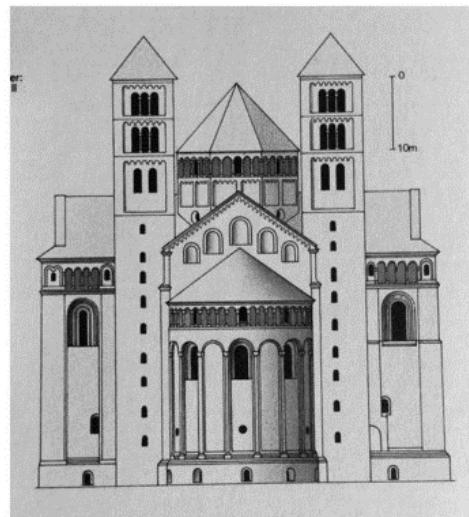
تميز المبنى الأول (Speyer I) بتسقيف المجازات الجانبية فقط بالقبواد المتصلبة (groin vaults)، بينما كان المجاز المركزي ذو سقف خشبي جملوني ولكن بعد 20 سنة من اكتماله أجريت على المبنى تعديلات هامة (Speyer II). إذ تمت زيادة ارتفاع المجاز المركزي بمقدار 5 م ومن ثم غطي هو أيضاً بالقبواد المتصلبة (groin vaults)، رافق ذلك تغير هام على جدران الرواق. فقد تطلب تلقي القوى الأفقية الناتجة عن القبواد زيادة في تخانة الدعامات الحاملة تم حلها بطريقة مميزة من

خلال إعطاء هذه الجدران تقسيما شاقوليا مرتبطا بطريقة التسقيف، فالأقواس المعرضة transverse arch، التي تفصل كل قبوة عن القبوة التي تلها، تستمر نحو الأسفل على الجانبين على شكل أنصاف أعمدة. نتج عن ذلك فراغ داخلي مختلف ترتبط فيه العناصر الشاقولية مع التسقيف مشكلة كلا متكاملا.

طريقة التسقيف ترتبط بتصميم المبنى بالاعتماد على مديول إنشائي هو القبوة المتضادة، ويعابها مديولان أصغر ضمن المجازات الجانبية كل منهما مسقوف أيضا بقبوة متضادة. هذا التنظيم المعروف بـ ad quadratum أي "النظام المترابط" انتشر بشكل واسع في ألمانيا.



blind gallery – dwarf gallery - round arch frieze



كاتدرائية شباير: الواجهة الشرقية وعناصرها - مسقط - منظور

عندما انتهى بناء كاتدرائية شباير عام 1106 م بطول 134 م وارتفاع 33 م (مجاز مركزي - عرضه 14 م) كان من أضخم مباني عصره. ويظهر هنا ازدياد في شاقولية المبنى فنسبة المجاز المركزي 1:2.4 (نسبة العرض إلى الارتفاع).

أما من الخارج وخاصة في الواجهة الشرقية فيضم المبنى خصائص واجهات عمارة الرومانيسك من حيث وجود الأبراج المربعة المقسمة إلى طبقات يزداد فيها عدد النوافذ وانفتاحها كلما صعدنا نحو الأعلى وتنتهي ببهأة هرمية بسيطة. وكذلك استخدام الأفاريز ذات الأقواس نصف الدائرية *round arch frieze* والأروقة الظاهرية *blind gallery* إضافة إلى الأروقة *dwarf gallery* التزيينية الصغيرة.

استمرت عمارة الرومانيسك في ألمانيا حتى منتصف القرن 13 م وحافظت على المبدأ التجمعي additive principle في العمارة، كما أصبحت جميعها تستخدم القبوسات المتصلبة في التسقيف. ويلفت النظر أن فكرة تكرار المحراب في شرق وغرب الكنيسة double apse بقى موجودة.